نصوص مختارة لشارل مالك

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

شرعة حقوق الانسان

وكان الوفدُ اللبنانيّ في طليعة الداعين إلى ضرورة الإقرار الدوليّ بمبدإ حرّيّة الفكر والضمير، وأنّ الحربَ قبل أَنْ تكون حربَ سلاح وقبل ان تكونَ حربَ مصالح هي حربُ فكرٍ وعقائد، وأنّها لذلك لا بدّ واقعة طالما يُفرَض الفكرُ والعقيدةُ على الانسان فرضًا ولا يُطلقُ لعقله، في جوٍّ محبّ مسؤول، الحرّيّةُ التامّةُ في التفكير والتمييز، وفي الصيرورة الشخصيةً الأخيرة.

تَرِدُ عبارةُ "الحقوقُ الإنسانيّةُ والحرّيّاتُ الأساسيّةُ" في ميثاق الأمم المتّحدة سبعَ مرّات. وطالبُ الميثاق المدّقق يلمح في الحال أنّ الأمم المتّحدة لا تجعل من إقرار هذه الحقوق والحرّيّات وصيانتها غايةً بحدِّ ذاتها فحسب، بل تؤكّد على أَنّ علاقات الصداقة السلميّةَ بين الشعوب إنّما تنهض على أساس احترام الكرامة الإنسانيّة وما يمتّ إليها من حرّيّات. وإذن بفعل نصّ الميثاق ذاته خرجت مسألةُ حقوق الإنسان عن كونها مسألةً محضَ داخليّة تتصرّف بها كلُّ بلادٍ كما تشاء، ورُفعَت إلى صعيد المسائل المشتركة الواقعة في متناوَل القانون الدوليّ. ولم يتبقَّ إذن إلّا أن تُعيَّنَ هذه الحقوقُ تعيينًا دقيقًا مسؤولًا، وتوضعَ بشأنها الاتّفاقاتُ الدوليّة المرغوبة.

وهكذا أنشأ المجلسُ الاقتصاديّ والاجتماعيّ، منذ ثلاث سنوات، "لجنة حقوق الإنسان" للعناية بهذا الوضع وذاك التعيين. راحت هذه اللجنة تمحّصُ جميع دساتير الأرض، وجميع القوانين المرعيّة بشأن حقوق الإنسان، ودرست ألوف المقترحات والوثائق التي وردت عليها من المؤسّسات والمعاهد والحكومات والحقوقيّين الدوليين والأساتذة الأخصائيّين، إلى أن انتهت أخيرًا إلى براءَة كاملة عرضتها على المجلس الاقتصاديّ والاجتماعيّ الذي أحالها بدوره إلى الهيئة العامّة للأمم المتّحدة التي التأمت في باريس في الخريف الفائت. وبعد تمحيص دقيق جدًّا عدّلت هذه الهيئةُ البراءَةَ بعضَ الشيء، وأقرّتها معدّلةً بثمانية وأربعين صوتًا وبدون أيّ صوتٍ مخالِف، وبثمانية أصواتٍ مستنكِفين.

لعب لبنانُ طيلة هذه المدّة دورًا أساسيًّا في تكوين هذه الوثيقة. وقد تدرّج من عضوٍ إلى مُقرّرٍ إلى رئيس مجلس إلى رئيس اللجنة الأخيرة الحاسمة، إقرارًا من العالم بأنّ لبنان، فكرةً وموقعًا وتاريخًا وكيانًا وحقيقةً، إمّا أنّه في ذاته في هذا الحقل بالفعل معلّم ومُرشد، أو أنّه يجب أن يكون معلّمًا ومرشدًا. وبعد هذا الإقرار العالميّ المسؤول لم يتبقَّ للبنان إلّا أن يُبرّر أو أن يُخيّب توقّعاتِ العالم منه.

إذا قابلنا بين هذه البراءة وبين "الماغنا كارتا" البريطانيّة، أو براءة الحقوق الأميركيّة، أو إعلان حقوق الإنسان والمواطن الثوريّ الإفرنسيّ، أو المانيفستو الشيوعيّة، أو أيّ نصّ بحقوق الإنسان والمواطن في أيّ دستور من دساتير العالم، ألفَينا أنّها تختلف عنها جميعًا أصلًا وصورةً وتركيبًا.

فمن حيث الأصلُ كانت جميع الإعلانات السابقة تعبّر عن وضع قانونيّ– اجتماعيّ– سياسيّ خاصٍّ بأُمّة معيّنة، أو بثقافة معيّنة، أو بتفسير انقلابيّ معيّن، لعلاقة الفرد بالجماعة والتاريخ. بَيْنَا شرعتنا نشأت من مجادلة الأمم والثقافات كلّها بعضها مع بعض خلال سنوات ثلاث في التربة الروحيّة الناجمة عن الحرب العالميّة الثانية. وإذن تكون البراءات السابقةُ جزئيّة الأصل والنشأة، بَيْنَا براءتنا كلّيّةٌ عالميّة. وإنْ صحّ القول إنّ الإعلانات السابقة تجسيدٌ لضمير أمّة من الأمم، أو ثقافة من الثقافات في ما يمسّ حقوق الإنسان، فيصحّ القولُ كذلك إنّ إعلاننا الحاضر هو تجسيد لضمير العالم كلّه بقدر ما في هذا الضمير العالميّ الآن من وحدة، أعني بقدر ما هو موجودٌ بالفعل.

ومن حيث الصورة فإنّ براءتنا قرارٌ للهيئة العامّة للأمم المتّحدة، فقيمتها إذن قيمة قرار لهذه المنظّمة لا غير. بَيْنَا الشرعات السابقة انبثقت من هيئات قوميّة أو من حركات ثوريّة، وفي كلتا الحالين دُمجت في الحال في دساتير البلدان التي نشأت فيها أو التي تبنّتها. ولئن اختلف القانونيّون الدوليّون في تأويل القيمة القانونيّة الصحيحة لقرارات الهيئة العامّة فممّا لا شكّ فيه، في نظري، أنّ هذه القرارات لا يمكن اعتبارُها، من حيثُ الصورةُ، إلّا بمثابة توصياتٍ للدول الأعضاء لا غير.

ومن حيث التركيبُ تتميّزُ الشرعة الحاضرةُ عن الشرعات السابقة بالأمور الآتية على الأخصّ:

أوّلًا، بشرطها مسألةَ السلم الدوليّ ذاتهِ بمسألة حقوق الإنسان.

ثانيًا، بتوكيدها الصريح على أنّ جوهر الإنسان إنّما هو عقله وضميره؛ ولذلك كلّ انتقاصٍ من حرمةِ العقل والضمير، وخصوصًا من حرّيّتهما في الطلب والرؤية والإعلان والصيرورة، إنّما هو امتهانٌ للإنسان في الصميم.

ثالثًا، بتعدادها الصريح الكامل لجميع أسباب التفرقة بين البشر، كالجنس والدم والدين واللغة والقوميّة والأصل، وتوكيدها القاطع على أنّ الحقوق المعلَنة تمتدّ إلى الإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن أيّ من هذه الاسباب.

رابعًا، بإعلانها المساواةَ التامّةَ بين الرجل والمرأة في جميع هذه الحقوق وعلى الأخصّ في شؤون الزواج.

خامسًا، بإعلانها حقّ كلّ إنسان بأن ينتمي إلى جنسيّةٍ ما أو يُغيّرَ جنسيّته.

سادسًا، وهذا الفرقُ لا يمسّ المانيفستو الشيوعيّة بنفس المعنى الذي يمسّ البراءات السابقة لها، بتوكيدها على حقوق الإنسان الاجتماعيّة والاقتصاديّة وعلى ضرورةِ تأمين أساس كيانه المادّيّ وعلى اعتبار حاجات عائلته في هذا التأمين.

سابعًا، بوصفها العائلة أساسًا للمجتمع، وإقرارها حقوق الآباء الأوّليّة في التوجيه التربويّ لأبنائهم.

ثامنًا، بتشديدها على توجيه التربية وجهةَ إنماء الشخصيّة البشريّة كلّها وخصوصًا وجهة تشجيع احترام الحقوق والحرّيّات الإنسانيّة.

تاسعًا، بإقرارها أنّ من حقّ الإنسان الأساسيّ الاشتراكَ الخلّاق في الحياة الثقافيّة.

عاشرًا، بتوكيدها على أنّه لا يحقّ للدولة أو للإنسان أن يستخدم أيًّا من هذه الحقوق والحرّيّات في سبيل خنق الحرّيّة.

شارل مالك،

خطاب ألقاه في الجامعة اليسوعيّة في بيروت، في ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٩، ونُشِر في مجلّة الأبحاث في آذار ١٩٤٩، ص ٢٣–٣٤.

###

شهادة عمر

أفهم شهادة عمر بأنّها عصارة حياة. إذا عَصرْتُ حياتي حتّى الآن خرجْتُ بالعقائد الأساسيّة التالية. هذه، إذن، هي فلسفتي الأخيرة الحاليّة في كلّ شيء، أعرضها بشكل هيكل مقتضب جدًّا.

اؤمن بأنّ العلم قدرة إنسانيّة عظيمة، وأنّه يكشف لنا كثيرًا من أسرار الموجودات. بالرياضيّات، وبالمشاهدة المنتظّمة الحسّيّة، وبالتجارب في المختبرات، وبالدخول في التراث العلميّ النظريّ الحيّ المتراكِم، في دُور العلم والصناعات في البلدان المتقدّمة، نستطيع أن نضبط كثيرًا من قوى الطبيعة المخزونة ونحوّلها لخدمة الإنسان. والشعوب التي لا تأخذ بالعلم، ولا تتقبّل الثقافة العلميّة، ستنقرض أو ستبقى مستعبَدة. وكلّ تعارض حقيقيّ بين استنتاجات العلم، وبين الخرافات والخزعبلات والأوهام الشائعة، يجب أن يؤدّي إلى ترك أو تعديل هذه الخرافات والخزعبلات والأخذ بناصية العلم.

أؤمن بالعقل، أي أنّ العقل السليم المدرَّب يستطيع فهم الأشياء واكتناهها. والعلم ذاته قدرة عقليّة. أمّا العقل الباحث فيتعجّب من كلّ شيء، ويتساءل عن كلّ شيء – من أرفع الموجودات، الذي هو الله، إلى أحقرها. لا يجوز بأيّ حال من الأحوال أن تُوضَع أيّة حواجز في سبيل البحث العقليّ المسؤول، عن أيّ موضوع إطلاقًا. والشعوب والثقافات التي تكبّل العقل أو تحرّم عليه طَرْقَ أيّ موضوع بصورة مسؤولة هي أيضًا ستنقرض أو تُستعبَد أو تبقى مستعبَدة. غير أنّ العقل إذا تكبّر واعتبر نفسه كلّ شيء، ينقلب إلى قدرة شيطانيّة. من خصائص العقل السليم أن يتواضع ويعرف حدّه ويقف عنده. والعقل لا ينضج في الفراغ ولا في الوحدة والابتعاد عن العقلاء، بل في الدخول الصميميّ في التراث العقليّ المتراكم لثلاثة آلاف سنة. لا يمكن أن تتعجّب من أيّ شيء، من الله إلى حبّة الرمل على شاطىء البحر، وتتوصّل إلى نتيجة بشأن هذا الشيء تحترمها باريس وأوكسفورد وبوسطن وموسكو، إلّا إذا انغمست انغماسًا كلّيًّا في التراث العقليّ المتراكم، المنصبّ في باريس وأوكسفورد وبوسطن وموسكو، وصرت جزءًا عضويًّا منه. للعقل إذن قواعده

ومراكزه وتراثه، ولا يمكن أن يَرتجِل أيّ شيء، أو ينسجه من وحي خياله. باللصوق فقط بهذه المراكز، وبالانطباخ من الداخل بهذه القواعد والتراثات، يستطيع العقل أن يصل إلى شيء أكيد محترَم.

اؤمن بأنّ هذا الشيء الأكيد الذي يتوصّل إليه العقل المنغمس بالتراث الحيّ المتراكم هو الحقيقة. أؤمن، إذن، بأنّ الحقيقة موجودة، وليست ضائعة، كما يظنّ البعض، وأنّ العقل يستطيع أن يفتّش عنها ويجدها. الحقيقة بالنسبة لأيّ شيء، من الله إلى حبّة الرمل، مرورًا بالحيوان والإنسان والمجتمع، ضائعة فقط لمن لم يجدها، لكنّها موجودة بالفعل لمن وجدها، وإذا لم يجدها بعد أيّ إنسان، فهي بالفعل موجودة بحدّ ذاتها، وموجودة في ذهن الله. التشديد على وجود الحقيقة الثابتة في أيّ موضوع، وعلى أنّ العقل يستطيع النفاذ إليها، من أهمّ ما أؤمن به.

كما أؤمن بالعلم، أؤمن كذلك بالفلسفة، أي باستطاعة العقل النفاذ إلى المبادىء الأولى في كلّ شيء. أن تعيش مع أعمق العقول في التاريخ، من أرسطاطاليس، إلى هيدغر، الذين حاولوا القبض على المبادىء الأولى في كلّ شيء، هي خبرة من أعمق خبرات الحياة. ثمّ أن تنطبخ بالثقافة الفلسفيّة، التي تمكّنك دائمًا من الغوص إلى الأعمق والصعود إلى الأعلى واستجلاء الأوّل، هو كسب شخصيّ هائل، لأنّك بذلك تستطيع معرفة ماذا يبني عليه الآخرون فكرهم وتصرّفهم في النهاية. وأخيرًا تمكّنك ثقافتك الفلسفيّة من بناء فلسفتك الأخيرة أنت. في التيّارات الفكريّة المعاصرة أشجب المادّيّة والإلحاد، أشجب الفرويديّة والإباحيّة، أشجب كذلك المماحكات اللفظيّة، أشجب جعل القِيَم رهنًا بالظروف والأوضاع، وأخيرًا أشجب كلّ ما من شأنه الحطّ من كرامة الإنسان وكبت حرّيّته المسؤولة، ومحو أو إضعاف شخصيّته. وأجدني قريبًا من الوجوديّة المؤمنة، الممثّلة بغبريال مارسال ومارتن بوبر ونقولا برديِيف، ولأنّ وجوديّة هيدغر هي، على العموم، محايِدة بالنسبة للإيمان، أستعين بها بسرور. لذلك يَسْرِي فيَّ تيّاران، تيّار عقليّ قائم في النهاية على أرسطاليس والأكويني، وتيّار وجوديّ ينبع، ليس فقط من الوجوديّين المؤمنين المعاصرين، بل على الأخصّ من الأنبياء والآباء والقدّيسين، أمثال داود وأوغسطينس وباسكال. ولذلك أرى الخطر كلّ الخطر في تيّار دي شاردن، الذي يذوِّب الإنسان الشخص في الكون والنشوء والصخور والنبات والحيوان، ولا يعطي أهميّة كافية للأخلاق والقِيَم والمُثُل، وكذلك في الفلسفات الاجتماعيّة التي تنسب الإنسان الشخص، في أخلاقه وكيانه ووجوده، إلى البيئة والعوامل والتيّارات الخارجة عنه.

أؤمن بأنّ الموجود الحقيقيّ، ليس الفكرة ولا الخيال ولا النُّظُم ولا النظريّات، بل الفرد. الموجودات هي هذه الشجرة أو تلك، هذا البحر أو ذاك، هذا الحذاء أو ذاك، هذا الإنسان أو ذاك. قد تكون أداة الإشارة هذا وذاك وذلك أهمّ كلمة في اللغة. الفكرة لا توجد بحدّ ذاتها بل في ذهن فرد، النُّظُم والنظريّات لا توجَد في عالم مستقلّ بل في ذهن هذا الفرد أو ذاك، والخيال إنّما هو خيال فرد. بالطبع تشترك جماعة من الأفراد بنفس الفكرة أو النظريّة أو الخيال، لكنّ هذه جميعًا لا توجَد في النهاية إلّا في ذهن فرد أو أفراد. أنت، أنت، إذن، أهمّ بكثير من أيّ فكرة في ذهنك، أو أيّ نظام تخضع له، أو أيّ التزام تلتزم به، أو أيّ صفة تَصِفُكَ. هذا التمييز القاطع بين الموجود الحقيقيّ المستقلّ، الذي هو دائمًا وأبدًا الفرد، وبين الموجود التابع غير المستقلّ، كالفكرة أو النظام، يمكّننا من نقد هرطقات لا تُحَدّ، في الروح والفكر والسياسة والاجتماع، في هذا العصر الحزين الضائع.

أؤمن بأنّ الموجودات تنتظم مراتب متسلسلة، من الله أعلاها إلى حبّة الرمل، أو ما هو دونها منزلة. لذلك يوجَد شيء اسمه أعلى وأرفع، ويوجد شيء آخر اسمه أوطى وأحطّ. المادّة الحيّة أرفع من المادّة الجامدة، الإنسان أرفع من النبات والحيوان، العارف أرفع من

الجاهل، الله والملائكة أرفع من الإنسان. هذه المرتبيّة في الوجود من أهمّ ما خسره الفكر والحياة المعاصران، ومن أهمّ ما تجب إعادة اعتباره.

أؤمن بأنّ الإنسان هو أرفع الموجودات المنظورة، وأنّه مسلَّط على كلّ موجود منظور آخر. أرفع شيء في الإنسان، ليس جسده ولا انتماءه العرقيّ أو الاجتماعيّ أو الطبقيّ أو الثقافيّ، مع أنّ هذه جميعًا جزء لا يتجزّأ منه، بل عقله وروحه. أُعرَّف بعقلي وروحي وتصرّفي، أكثر بكثير مما أُعرَّف بجسدي أو بانتمائي لهذا العرق أو ذاك، أو لهذا المجتمع أو ذاك، أو لهذه الطبقة أو تلك، أو لهذه الثقافة أو تلك. وللإنسان كرامته الأصيلة التي تقضي بأن يتمتّع بحقوقٍ وحرّيّات طبيعيّة لا يجوز لمجتمعه أو حكومته أن تنزعها منه. هذه الحقوق والحرّيّات هي ما تضمَّنها الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان.

أؤمن بأنّ الإنسان حرّ، وبالتالي مسؤول. حرّ لأن ينهض بنفسه أو يتقاعس، حرّ لأن ينشد المعرفة والنور أو يغطّ في الجهالة والظلام، حرّ، عندما يعرف الحقيقة، أن يتمرّد عليها، حرّ أن ينتحر. وفي كلّ تصرف حرّ يكون الإنسان مسؤولًاعن قراره وعن ذيول قراره، ولا يستطيع بحال من الأحوال أن يُنْحِي باللائمة على غيره. غير أن أرفع حرّيّة هي العبوديّة للحقّ.

كُنْ للحقّ عبدًا فعبد الحق حرّ

وبما أنّ الله هو الحقّ، فأسمى تسمية يُسمَّى بها الإنسان هي عبد الله. [...].

أؤمن بأنّ المستقبل أهمّ من الماضي، شرط ألّا يُنسينا الماضي وشرط ألّا نعبده كإله. لا يمكن أن نفعل في الماضي، لكنّ فعلنا كلّه في الحاضر من أجل المستقبل. الإنسان الموجود بالفعل هو الذي له مستقبل، هو الذي يتطلّع إلى مستقبل. التخطيط، إذن، من صلب الوجود. غير أنّ من يظنّ أنّ التخطيط، مهمَا كان مُحْكَمًا، سيؤول إلى الكمال، والتقدّم، مهمَا كان هائلًا، سيحقّق السماء على الأرض، يخطىء في ظنّه أيّما خطإٍ. النقص والشرّ والفساد من صلب الوجود، والحَوَل والقوّة والكمال لله فقط.

لذلك أؤمن بأنّ التقدّم في الأمور الأساسيّة وهمٌ وسراب. إنّ الذي رآه عشرة فلاسفة وعشرة أنبياء منذ مئات السنين وآلافها، وحقّقوه في حياتهم ضمن الأمور الأساسيّة، لا مثيل له في القرن العشرين. لا يوجد شيء شبيه بداود اليوم، لا يوجد شيء شبيه بالأكويني، لا يوجد في هذا العصر، بل لا يوجد في التاريخ كلّه، شيء شبيه بشكسبير. وقد وُجِدَت عصور ومجتمعات في الماضي أسلم وأشدّ عدالة وسعادة وفرحًا وعافية وخصبًا من كثير من مجتمعات هذا العصر. وإذن، يجدر بعَبَدَة التقدّم أن يعتبروا ويتّضعوا.[...] .

أؤمن بأنّ الصداقة أهمّ شيء على الأرض. إنّ احترام الصديق للصديق بشخصه وحرّيّته واستقلاله، الشفافية التامّة بين الصديق والصديق، ارتياح الصديق للصديق، الثقة المتبادلة، البذل بلا حساب، الخبرة الطاهرة المشتركة، العِشرة المرحة، النقاش الحرّ في أسمى المواضيع، التطلّع إلى اللقاء، الكشف الصادق عن الصدر، الاعتذار العفويّ عن أيّ إساءة، عدم الحسد أو التحاسد في أيّ شيء، الفرح الخالص لتوفيق الصديق وتقدّمه وسعادته، المشاركة الصادقة في المحن والتجارب والأفراح والأتراح – هذه وغيرها الكثير هي نِعَم الصداقة على الأرض.[...].

وبرغم مِحَني الشخصيّة والعقلية– وقد يكون بسببها – لم أَرْتَحْ مرّة لأيّة فلسفة تقول بالعقل فقط، بالإنسان فقط، بالطبيعة فقط، بالمجتمع فقط، ولا تقول بالله وبيسوع المسيح. من هنا ارتمائي آخر الأمر على أفلاطون وأرسطاليس، وعلى أوغسطينس والأكويني[...]..

في عملي الدبلوماسيّ في واشنطن، وفي انهماكي بشؤون الأمم المتّحدة في نيويورك، وفي المسؤوليّات السياسيّة التي أُلقيت على عاتقي في بيروت، بذلْتُ، وبذلَتْ معي زوجتي الأمينة، كلّ شيء تقريبًا في خدمة لبنان والقضايا العربيّة، وفي إجلاء الحقّ والدفاع عن الحرّيّة والكرامة الإنسانيّة. في كلّ هذا لم نَقُمْ إلّا بواجبنا. خدمة الوطن، والذَود عن الحقّ، والمشاركة الحميمة في الحوارات العالميّة الأخيرة المعاصرة، كلّ هذه من أشرف الأعمال التي تُناط بأيّ إنسان، أو التي يُنيطها هو بنفسه.

في هذا الصخب الهائل، السياسيّ والعالميّ والفكريّ، انصببت بكلّيّتي على التحدّيات الكبرى التي كانت تجابهني كلّ يوم، بل كلّ ساعة، وأحيانًا بشكل حادّ جدًّا. وكان فرحي بالشغل، بالتقرير، بتحمّل المسؤوليّات، بالشخوص الأخير أمام المصير، فرحًا لا يُحَدّ. لكنّي نِلْتُ في هذا الخضمّ قسطي الوافر من التجارب والمحن، بجميع معاني هاتين العبارتين تقريبًا. فجرَّبني إبليس وامتحنني المسيح، وكثيرًا ما وقعت في التجربة وسقطت في الامتحان. في الشدّة القصوى، وفي الارتخاء، يبرز في الإنسان خير ما فيه وشرّ ما فيه في آن واحد. فكَأَنَّ الإنسان يصبح في المحنة ميدانًا لمشادّة عنيفة بين الله والشيطان، ولا يدري غير الله أيًّا من الاثنين سيغلب. كم مرّة كنت غير مستحقّ لنعمة المسيح، كم مرّة ذرفتُ دموع التوبة، كم مرّة غفرَ لي وأعانني، كم مرّة قطعتُ له عهدًا، كم مرّة كسرت العهد، كم مرّة ذرفت دموع التوبة من جديد، ومع ذلك، كم مرّة أتاح لي الفرصة من جديد، ولم ييأس منّي! في كلّ هذا أخال أنّ دوستويفسكي وتيريزا فقط يفهمانني، بعد المسيح.

شارل مالك،

كلمة أُلقِيَتْ في كنيسة أنطلياس في فصل الصوم بدعوة من حركة التجدّد يوم السبت في ٦ نيسان ١٩٧٤ ونُشرَت لاحقًا في مجلّة الرعيّة الجديدة، العدد ١٣٣، كانون الثاني ١٩٧٥، ص ٢٣-٢٩، ومن ثمّ في كتابه **به كان كلّ شيء**: شهادة مؤمن (بيروت: دار المشرق، ٢٠١٠) ص ٤٣٩-٤٥٥، من تحرير الدكتور جورج صبرا والدكتور حبيب مالك.

###

في طلب الحقيقة

غريب هو الكائن الإنسان– غريب في امتلائه سرًّا وغرابة، وغريب هو في كونه متغرّبًا – غريب متغرّب. وسرّ أسراره يكمن في ذلك التغرّب إيّاه.

لذلك نسأل: متغرّب عن ماذا؟ متغرّب عن مَن؟ ونجيب أنّه متغرّب عن شيء كانَه أو بإمكانه أن يكونه؛ لكنّه، وهو في حالة التغرّب هذه، يكون دون ذلك الشيء أو بعيدًا عنه، وحنينه الأخير هو في الرجوع إليه. فغرابة الإنسان، إذن، هي في كونه متغرّبًا عن شيء يحنّ للرجوع إليه.

أنا أعرف تمامًا أنّني غريب، وأزعم، أيّها القارئ، أنّك أنت غريب. غرابتك أنّك طافح بالأسرار التي أجهل، بل، والتي تجهل أنت أيضًا. وهذا هو الأغرب. غرابتك أنّك تجيش بالمهامّ التي لستَ واثقًا منها أنت نفسك. إنّك مثلي، تتلمّس أسرارك، ومعنى حياتك كلّها في التلمُّس. إنّ سرّك الدفين هو أنّك تريد، مثلي، إنهاء تغرّبك والعودة إلى كنانك، وتفتّش، مثلي، عن طريق العودة.

متى نعود؟ وكيف نعود؟ وإلى أين بالذات؟ وإلى مَن؟ ثمّ هل نستطيع العودة؟ أم أنّه قُضِيَ علينا بالتغرّب طيلة العمر؟ وهل من طبيعة كياننا أن نبقى غرباء، نعاني حسرات الغربة؟ تلك هي الأسئلة الأخيرة الحاسمة.

التغرّب هنا لا يعني التغرّب المكانيّ. فالقابع في داره او بلده تسعين عامًا هو أيضًا متغرّب، وسقراط الذي لم يهجر أثينا يومًا واحدًا طيلة حياته كان هو لربّما أشدّ البشر تغرّبًا. المقيم مدى العمر في المكان الواحد والذي يدور الارض ستّ مرّات في السنة ويشاهد مختلف أصناف البشر والحضارات، كلاهما متغربّان. وليس ثمّة أيّة قاعدة قَبْليّة تحتُّم أنّ الواحد أكثر تغرّباً من الآخر. وحينما نضجر من القبوع ونجمع أمتعتنا ونسافر، طلبًا للتغيير، فكثيرًا ما نضجر من التغيير إيّاه، ونحنّ إلى الرجوع حيث كنّا قابِعين.

لا يُعجبنا شيء. لا يُشبعنا شيء. لا نرتاح إلى شيء. ولا نستقرّ على شيء. أبدًا ننتقل من شيء إلى شيء. نكدّ، نجدّ، نكافح، ونسعى؛ نفتّش، نقلق، نتحرّق، ونطلب؛ نتطلّع، نترقّب، وننتظر؛ ليلًا نهارًا.

اللذّة في حدّ ذاتها–تلك التي نظنّ أنّها ألصق شيء بنا– ما إنْ تكون حتّى تزول؛ فنحن– حتّى في إبّان حدّتها– نشعر بغصّة غريبة، وندرك أنّها– على حدّتها – ليست بالمراد؛ نشعر أنّها خدعتنا وكادت لنا، وما إن تزول حتّى نندم على أنّها كانت أصلًا، فنحسّ بالخيبة والمرارة. إنّنا لا نفتقدها عند ذاك، بل نتمنّى لو كانت تغيب إلى الأبد. اللذّة مدعاة للتعرّف الذي يجعلنا نتوق إلى التفلّت من براثنها؛ وهي حتّى عندما تكون ضروريّة، كلذّة الأكل مثلًا، نقول، عند حدود التخمة والقرف، ليتها ليست كذلك!

غريب ردّ فعلنا هذا عندما نندم على اللذّة ونقرف منها! فما إنْ نشبع ونقرف حتّى نشيح بوجهنا عنها تمامًا. كلّ هذا يدلّ على أنّ اللذّة لا تُشبِع، بل تبهر ولا تملأ. وهي في هذا الخداع وهذا التضليل تفضح نفسها على أنّها ليست طريق العودة.

كلّنا غرباء، ونبقى غرباء.

غرباء عن أنفسنا، أو عن شيء ما. غرباء حتّى في نشوة اللذّة. وهكذا، فإنّ هذه التي نحسبها ألَصق شيء بنا، تزيد تغرّبنا تغرّبًا وغرابتنا غرابة. أمّا قلق العودة ولوعة الرجوع فباقيان.

غريب هو الكائن الإنسان. ولأنّه غريب، فإنّ الغرابة كامنة في تطوّره حتميًّا. إلّا أنّه يستحيل التكهّن بذلك التطوّر قبل حدوثه. وإذا كان بالإمكان فهمه جزئيًّا بعد حدوثه، فإنّ ضبطه كلّيًّا، والنفاذ إلى صورته قبل ذلك الحدوث يظلّ أمرًا عسيرًا، بل مستحيل. فلو قيل لي، منذ خمسين عامًا وأنا في بطرّام؛ أو منذ أربعين وأنا في مصر، أو حتّى منذ ثلاثين عامًا وأنا في بيروت، أنّني سأكون اليوم حيث أنا، فكريًّا وعقائديًّا، حياتيًّا ومجتمعيًّا، إيمانيًّا وكيانيًّا، لَما صدّقْت، رغم أنّ ما صرت إليه اليوم كانت بذوره تُلمَح في ذلك الحين، وتُلمَح معها بذور أخرى.

ففي كلّ لحظة يقف الإنسان على مفترَق طرق. أقول "في كلّ لحظة"، لأنّ الإنسان يجد نفسه، في كلّ لحظة، أمام واحد من إمكانَين على الأقلّ: أن يبقى في الوجود أو لا يبقى. وهذان الإمكانان المتيسّران للإنسان دائمًا وأبدًا، يقعان قبل أيّ اختبار آخر، ويقفان وراءه، ويستقرّان في أساسه، وكلّ اختيار آخر يفترض هذين الإمكانَين ويتضمّنهما. فالمُفترَض أساسًا أن يكون الإنسان قد اختار الوجود على العدم، حتّى وإنْ لم يَعِ ذلك الأمر إطلاقًا، لأنّ مجرّد وقوفه بالفعل أمام اختيار آخر يَفترض هذين الإمكانَين ويتضمّنهما.

فالمُفترَض أساسًا أن يكون الإنسان قد اختار الوجود على العدم، حتّى وإنْ لم يَعِ ذلك الأمر إطلاقًا، لأنّ مجرّد وقوفه بالفعل أمام اختيار آخر يعني أنّه موجود قادر على هذا الاختيار، أي أنّه لم يُنْهِ حياته، مع أنّه كان بإمكانه أن يفعل ذلك. إنّه موجودٌ باقٍ، ولذلك فهو قادر على أيّ اختيار آخر. أمّا إمكان الانتحار، أي قدرة الإنسان على تقرير إنهاء حياته، وتنفيذ هذا القرار، فإنّه يميّز الإنسان عن سائر الموجودات، لأنّه ما من موجود غير الإنسان يملك القدرة على الانتحار. مجرّد أنّي أجد نفسي أمام أيّ اختيار إطلاقًا يعني بوضوح تامّ أنّ قرارًا سبق هذا الوجود وشرَطَهُ، أعني اختياري، عن وعي أو عن غير وعي، البقاء بالفعل، وبالتالي قراري ألّا أنتحر.

لقد حدّد أرسطاليس الإنسان بأنّه حيوان عاقل، أو حيوان ناطق، أو حيوان ضاحك، أو حيوان سياسيّ. وصفات العقل والنطق والضحك والسياسة هذه؛ تميّز الإنسان، وتحتوي الواحدة منها الأخرى. فلا سياسة بلا ضحك أو نطق أو عقل؛ ولا ضحك بلا تفاعل اجتماعيّ أو نطق عاقل؛ ولا نطق إنسانيًّا لا ينطوي على إمكان ضحك، أو لا يعبّر عن عقل، أو لا يقع في مجتمع منتظم؛ ولا عقل حيث لا تعبير أو إمكان ضحك، وحيث لا مجتمع متفاعلًا.

ونستطيع الآن أن نضيف إلى هذا التحديد أنّ الإنسان حيوان غريب، وحيوان قادر على الانتحار: غريب بمعنى الغرابة وبمعنى التغرّب اللذيْن حدّدنا أعلاه، وقادر على الانتحار بمعنى أنّه الحيوان الوحيد القادر على أن يتصوّر انتحاره ويعتزمه ويحقّق ذلك الانتحار.

بعد هذا أقول إنّ ما ذهب إليه أرسطاليس من أنّ الإنسان حيوان عاقل، يُبرِز حيوانيّة الإنسان وعقلانيّته في آن معًا. وما دام الحيوان كائنًا معيّنًا، فإنّ أرسطاليس يقيّد الإنسان بهذا الكائن المعيّن، أي الحيوان. وهكذا يرتبط الإنسان، عن طريق حيوانيّته، بالكون المادّيّ الأوسع، ويصبح جزءًا عضويًّا متفاعلًا فيه ومعه. غير أنّ الصفات الستّ الأخرى– العقل، والنطق، والضحك، والسياسة، والغرابة، والانتحار– التي تحدّد نوعيّة هذا الحيوان، تميّزه تمييزًا كاملًا عن أيّ حيوان آخر أو كائن آخر منظور. فالإنسان ليس إنسانًا بالصفة الحيوانيّة، بل بهذه الصفات الستّ التي لا تجدها في الجماد، ولا في النبات، ولا في الحيوان، بل في الإنسان وحده، وبها يتميّز الإنسان عن أيّ كائن مادّيّ آخر، وبها يخرج عن كلّ موجود منظور، بل ويفوقه.

بالحيوانيّة يلتحم الإنسان بالكون الطبيعيّ، وبالعقلانيّة والغرابة والانتحار ينفصل عن الطبيعة كلّيًّا.

بالحيوانيّة يخضع الإنسان للطبيعة، وبالعقلانيّة والغرابة والانتحار يصبح فوق الطبيعة، يتفرجّ عليها، يداعبها، ويروّضها، ويهزأ بها، بل ويُخضِعها له. أمّا كيف تتواجد هذه الصفات الستّ وتتعايش فيما بينها، وكيف تتفاعل بعضها مع بعض، أو يتفاعل كلّها مع الطبيعة الحيوانيّة في كيان واحد هو الإنسان– فهذه، بالطبع، مشكلة في حدّ ذاتها.

* * *

ها نحن، إذن، موجودون. إنّنا لم نتخيّر العدم. وبمجرّد أن نقول هذا بعد الإمكانيَن الأساسييّن– إمكان الوجود وإمكان العدم– اللّذين يجد الإنسان نفسه أمامهما دائمًا، وبمجرّد أنْ يكون الإنسان قد اختار الوجود على العدم، فإنّ مفترقات متوالية تعرِضُ له. وهو في اللحظات الحاسمة، على الأخصّ، يقف حائرًا أمام هذه المفترقات: أيّها يختار ويعتمد؟ وأيّها يرفض ويهمل؟ وكيف؟ ولماذا يقبل أو يرفض؟ كلّ هذه تظلّ غير واضحة له تمام الوضوح، حتّى في لحظة التقرير. يُسدَل عليها ستار متفاوت الكثافة من السرّيّة والظلام

والإبهام. إنّه يشرحها، بالطبع، ويفسّرها، ويبرّرها، ويتحمّس لها، لاسيّما بعد التقرير؛ فيقول حينًا، على غير اقتناع تامّ، إنّ خيرًا ممّا كان لم يَكُنْ بالإمكان، ويندم أحيانًا، ويقرّ هكذا بأنّ خيرًا ممّا حصل كان بالإمكان؛ لكنّ جانبًا من ذلك كلّه يبقى، في غموضه، دائمًا وأبدًا غير مفهوم.

هل يعني ذلك أنّ المصادفة والحظّ يتحكّمان وحدهما بالمصائر؟

نعم. إلّا إذا كانت ثمّة عناية حكيمة متعالية قادرة على التحكّم بها في رأفة وخفية.

المُهمّ، آخر الأمر، ليس الطريق الذي يقع الاختيار عليه، بل المُهمّ هو المحافظة على سلامة النفس ووحدتها، رغم تتابع الطرق وتنوّعها. والمُهمّ، فوق كلّ شيء، هو كيفيّة تطويع الفُرَص المتاحة، وصهرها، والإفادة منها، لبلوغ كيان بعيد المنال؛ المُهمّ هو هذا الكيان الأكيد، البعيد المنال، الكيان الذي، عندما نبلغه، نعرف أنّه هو سرّ غرابتنا وهو ما كنّا ننشد في توقنا إلى العودة من غربتنا.

كان همّي الأرفع، منذ أن وعيت الحياة في قريتي بطرّام، هو معرفة الحقيقة. هذا ما أقوله الآن، وهذا ما لم أستطع، ولم أعرف، كيف أقوله في حينه. لم يكن لي في يوم مضى، وليس لي اليوم، همّ أعمق، ولا أعنف، ولا أشدّ إلحاحًا وعنادًا، من هذا الهمّ. الحقيقة الحقّة، المليئة، المشبعة، الثابتة، الباقية، الأكيدة، المعطية الحياة، هي التي كنت أنشد في حياتي كلّها، وهي التي أنشد الآن. وإذا وجدتها، وعندما أجدها، فأنشدها أكثر فأكثر. بلوغها لا يعني التوقّف عن نشدانها، بل الاستماتة في نشدانها أكثر فأكثر. فليس لحياتي، آخر الأمر، دافعٌ غيرُها، ولا حافزٌ أو معنى، ولا نفعَ لي إلّا بها.

أتعرف ما هو أكثر سطحيّة من تقسيم حياة النشدان إلى مراحل وأعوام؟ إنّه تعداد "العوامل" التي فعلت فيها، و"التيّارات" التي انصبّت عليها، و"الظروف" التي أحاطت بها. فالمهمّ وحدة النفس الحيّة وتواصلها، لا كثرة "العوامل" أو "التيّارات" أو "الظروف" أو تنوّعها. المهمّ ما وصلتُ إليه، وما انصهرتُ فيه، وليس ألم الوصول ولا أنين الصهر. المهمّ أن تبقى النفس، في سكون الخلق وتعاليه، ممسكة بزمام المبادأة في وجه التيّارات والعوامل والظروف جميعًا.

تقاذفتي "التيّارات" و"العوامل" ما بين بطرّام، وبشمزّين، وطرابلس، وبيروت، والقاهرة، وهارفارد، وفرايبورغ، فبيروت ثانية؛ ثمّ دفعَتْ بي إلى واشنطن والأمم المتّحدة، وردّتني إلى بيروت ثالثة؛ ثمّ قذفَتْ بي إلى الاشتراك في الحكم في لبنان، وأعادتني إلى الخدمة في الأمم المتّحدة؛ ثمّ أخذتني إلى بعض المعاهد الأميركيّة العالية، وأرجعتني إلى بيروت أخيرًا حيث أنا الآن. كلّ ذلك، مرورًا باختبارات وتعرّفات وتجارب لا تحصى، أوردتها بصورة ضئيلة جزئيّة في مذكّراتي، ولا يعرفها بكلّيّتها وكمالها إلّا الله.

البيئة اختلفت، والتربة تنوّعت، أمّا السعي فواحد. النفس انتقلت من تحدّ إلى آخر، لكنّ التحرّق بقي واحدًا– التحرّق إلى الوجود الكامل، إلى الكيان الأسمى، إلى الحقيقة الحقّة. أين هي تلك الحقيقة في وسط مفاجِئات الوجود وخباياه؟ أين الحقيقة؟ أين هي؟

الواقع أنّ الأمر الذي يبدو بسيطًا في سياق هذا العرض هو أكثر تعقيدًا. فـ"التيّارات" و"العوامل" و"الظروف" لم تقذف بي ولم تدفعني كريشة في مهبّ الريح. ففي البداية كان لوالديّ ومُحبّيَ قول فصل، وفي مختلف الظروف كان الأمر شورى بيني وبين من يحبّني وأحبّه، لكنّ إرادتي هي التي كانت في معظم الحالات تختار وتصمّم أخيرًا، وهي التي كانت تقبل بالحثّ والدفع. وفي كلّ حال كنت أنا

المسؤول الأخير؛ لا الوعد رغّبني، ولا الوعيد أرهبني، ولم يُفرَضْ عليّ شيءٌ فرضًا. لا أعرف شيئًا واحدًا مُهمًّا وقع اختياري عليه في حياتي كان للوعد أو للوعيد فيه أثر ما. إنْ انا أصبْتُ، فالفضل للّه وليس لي، وإنْ أنا ضلَلْتُ، فاللوم عليّ وليس على آخر.

شيء واحد كان يجذبني ويُلوّح لي من بعيد، شيء غريب عجيب خفّي، لكنّه، على خفيته وبعده، شيء أكيد، ولو لم يكن كذلك لَمَا جذبني إليه. اللاشيء لا يجذب، إنّما الشيء الأكيد هو الذي يجذب ويشدّ. إنّه الشيء الذي طالما خفق له القلب وسال الدمع، لأنّه كان أمامي دائمًا، وفي حيّز إمكاني، بل في متناول يدي. وإذا كان شيء واحد يجذبني ويدفعني طيلة حياتي، فأين حرّيّتي إذن؟ أين حرّيّتي ما دمْتُ مندفعًا في كلّ حال؟ لقد كان بإمكاني دائمًا أن أرفض الدفع وأن أشيح بوجهي عن الجذب، ولكنّي استجبْتُ لذلك الشيء، ورضيت بالاندفاع نحوه. أنا حرّ لأنّ الرفض كان دائمًا في متناولي، أنا حرّ لأنّ القبول كان دائمًا متاحًا لي. حرّيّتي عينها، إذن، تتقرّر وتتألّف بشكل تامّ حازم من هذين الإمكانَين معًا بالذات– إمكان الرفض وإمكان القبول.

ما هو ذلك الشيء الخفيّ الأكيد الجاذب الدافع المنشود؟ الجواب التمهيديّ، أنّه الحقيقة، أي أنّه شيء موجود، شيء حقيقيّ ثابت وأكيد، لا غشّ فيه ولا زيف، شيء لا يخدع ولا يُغالِط، وهو، على بعده وخفيته، شيء مُتاح، ممكن الأخذ والمَنال، شيء يرتاح إليه العقل ويطمئنّ تمامًا، بل ليس في مقدور العقل أن يشكّ فيه، أو يتساءل عنه، أو يدور حوله؛ إنه شيء يُقنِع ويُشبع، شيء مضبوط لا عطب في أيّ من جوانبه كافّة، يملأ النفس، فتطمئنّ إليه، وتجد فيه سعادتها؛ شيء باقٍ أَرْكُنُ إليه بسلام، وهو حين أَجده أقول إنّه كان موجودًا منذ الأزل وهو الذي كنت أبحث عنه طيلة حياتي؛ شيء يُغنيني عن أيّ شيء آخر إنْ أنا وجدْته ومكثْت فيه؛ شيء مُباح عموميّ بمقدار ما هو خصوصيّ أمتلكه شخصيًّا؛ شيء آخر إنْ أنا حزته واعتنقته تمكنّت من شرحه ونقله إلى غيري، وتمكّن غيري من حيازته واعتناقه هو أيضًا، دون أن يُنْتَقَصَ مثقال ذرّة من حيازتي له واعتناقي إيّاه. شيء، بقدر ما أَشرحُه، وأَكونُه، وأشهد له، وأُشرِك غيري فيه، بقدر ما يزداد فيّ تمكُّنًا ووثوقًا.

هل هذا الشيء سراب؟ هل أنا واهم يُخيَّل إليّ؟ فلو قلْتُ إنّه سراب لتعيّن عليّ أن أقول بالتالي، إنّ شغفي ونشداني هما شيء وُجِد من لا شيء، وهذا مستحيل؛ ولو قلت إنّه سراب لآمنت فورًا بالصدفة والسحر، وهو ما أرفضُ أساسًا. لأنّه لا بدّ من أن يكون في صلب الوجود أساس لما نطلب وننشد. فالوِجْد لا بدّ أنْ يَجِد، والواجد حقًّا لا بدّ أن يجد نفسه يومًا ما بالفعل واجدًا.

شارل مالك،

من كتاب **المقدّمة**: **سيرة ذاتيّة**، ط. ٢، بيروت، دار النهار، ٢٠٠١، ص ١٣–٢٢.